



29 أغسطس 2019  
 كتب: د. عبدالرحمن البر

الحمد لله الذي نعمه لا تُحصَى، وشكره لا يُؤَدَى، وليّ النعم كلها دون من سواه، ولا فلاح إلا لمن هداه، ولا نجاة إلا لمن عصمه من اتباع هواه، وصلى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد عبده الذي ارتضاه، ورسوله الذي اختاره واصطفاه، وخصّه بختم النبوة وحباه، وأباه بأعلى منازل الفضل على كل آدمي سواه، وعلى آله وصحبه الطيبين الهداة.

وبعد أيها الكرام السادة، فقد غاب صديقي النبيه عن مجلسنا على غير العادة، فقلت: أذهب الليلة إليه، فأسأل عنه وأطمئن عليه. فأتيته في المساء، بعد أن أدبنا صلاة العشاء، فرأيتُه وهو مكتئب حزين، كاسف البال مُقطَّب الجبين.

فقلت: أبا صاحبي! ما الذي دهاك؟ وعن مجلس الأصحاب والأحابِ صرقت ورواك؟ قال: ليس لي أصحاب ولا أحبّاء، وحق ما قال بعض البلغاء:

ما ودك من أهمل وُدك ولا أحبك من أبغض حُبك  
 وقد قيل: علّة المُعاداة، تكون في قلة المُبالاة.

وكلُّ أخ عند الهويّ مُلاطفٌ ولكنما الإخوان عند السدائد  
 قلت: هذا كلامٌ خطير، فما الذي أدّى لكل هذا التغيير؟

قال: أو ما سمعت قبل يومين أخانا عدنان، حين ساءني واستهزأ بي بين الإخوان، وليست هذه المرة الأولى، فله في السخرية مني يد طولى، وكم حدثت نفسي بالصبر على هذا الفعل، ولكني قد فاض بي الكيل، ومع أي أُرُدُّ عن كل إخواني السُخف والجَهْل، فلم أجد من أحدٍ منهم الردّ والوفاء، فتيقنت ما قال بعض الشعراء:

ما كدث أفضص عن أخي نقيّة حتى دممت عواقب الفحص  
 ولهذا فقد قررت ترك مجالس الإخوان، والانفراد بنفسي عن أبناء الرّمان.

قل للذين صجبتاهم فلم ترهم يرصون لمن صجبتوا بغير الدون  
 سلامة الدّين والدنيا فراقكم وِفراقكم راحة الدّنيا مع الدّين

قلت: أخطأت يا ابن الكرام، وجائت الصواب في الفعل وفي الكلام، فقد قال الحكيم ونعم ما قال، الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال. وكنت إذا الصديق أراد عيظي وأسرّ قيني على حتى يريقي

صفت دُوبته وعقوت عنه مخافة أن أعيش بلا صديق  
 إن الأَخ يا صديقي إنسان هو أنت إلا أنه غيرك، فلا تكن في شك من الإخوان ولا يلبس عليك أمرك، ولعمري إن إخوان الصّدق لمن

أنفس الدخائر، وأفضل العُدَد للزمان أيها الذكي الماهر، وقد جاء في معنى الحديث الشريف، أيها الصديق النبيه اللطيف:  
 لله في الأرض أجنادٌ مُجندة أرواحها بيتها بالصّدق تعرف  
 فما تناكر منها فهو مُختلف وما تعارف منها فهو مُؤتلف

وفي الحكمة قيل، أيها الصديق النبيل: من استصلح عدوه زاد في عُده، ومن استفسد صديقه نقص من عُده.

أو ما دريت أن من قطع الإخوان دفعهم ليقطعوه، ومن صيغهم كان آخرى أن يصيغوه، وعز عليه أن يعوضهم وسهل عليهم أن يعوضوه. يَمضي أحوك فلا تلقى له خلفا والمال بعد دهاب المال مُكتسب

والأخ بين إخوانه يا زين الأصدفاء، كالسّمك السايح في لطيف الماء، فإن غادره ضاق به واسع القضاء.

قال صديقي- فرج الله عنه الصيق -: لكثني يا شيخنا قد صاحبك أكثر من صديق، فما رأيت أكثرهم عقر لي دبتا، ولا ستر لي عييا، ولا حفظ لي عييا، ولا أقال لي عثرة، ولا بدّل لي نصرة، لقد جئت من القوم السرائر، وخالفت في غالب الأحوال الطواهر، حتى قيني يا

شيخنا مبرأ النبوة، وفقدت من الناس المروءة والفتوة.  
 صديقك لا يئني عليك يطائل فمادّا ترى فيك العدو يقول

قلت: اسمع أيها الصديق الطيب الأثير: لا ترهّد في صديقك لخلق أو خلقين تُكْرِهُمَا لَمَالًا رَضِيَتْ مِنْ أَخْلَاقِهِ الْكَثِيرِ، فَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ الْأَخْطَاءِ مَغْفُورٌ، وَالذَّنْبَ فِي خِصَمِّ الْحَسَنَاتِ مَغْمُورٌ.

لَا يُؤَيِّسُكَ مِنْ صَدِيقِ تَبَوُّهُ يَبْنُو الْقَتَى وَهُوَ الْجَوَادُ الْخَصْرُمُ  
فَإِذَا تَبَا فَاسْتَبِقِهِ وَتَأْتُهُ حَتَّى تَفِيءَ بِهِ وَطَبْعُكَ أَكْرَمُ

فلا يُرْهِدَنَّكَ مِنْ صَدِيقٍ حَمَدَتْ سَبِيرَتَهُ، وَارْتَضَيْتْ وَبَيَّرَتَهُ، وَعَرَفَتْ أَدَبَهُ وَفَضْلَهُ، وَخَبَّرَتْ عَقْلَهُ وَثَبَلَهُ، عَيْبٌ تَحِيْطٌ بِهِ كَثْرُهُ فَضَائِلُهُ، أَوْ ذَنْبٌ صَغِيرٌ تَسْتَغْفِرُ لَهُ قُوَّةٌ وَسَائِلُهُ، فَإِنَّكَ لَنْ تَجِدَ أَبَدًا مَا بَقِيَتْ مُهَدَّبًا لَا يَكُونُ فِيهِ عَيْبٌ، أَوْ مَعْصُومًا مَحْفُوظًا لَا يَتَّقِعُ مِنْهُ ذَنْبٌ.

أَتَطْلُبُ صَاحِبًا لَا عَيْبَ فِيهِ وَأَيُّ النَّاسِ مَنْ لَيْسَ لَهُ عُيُوبٌ

إِنَّ مِنْ حَقِّ الْإِخْوَانِ أَنْ تُغْفَرَ زَلَّتْهُمْ، وَأَنْ تَسْتُرَ بِأَصْدِيقِي هَفْوَتَهُمْ؛ لِأَنَّ مَنْ رَامَ بَرِيئًا مِنَ الزَّلَّاتِ، وَطَلَبَ سَلِيمًا مِنَ الْهَفَوَاتِ، رَامَ أَمْرًا مُعْوَرًا، وَاقْتَرَحَ وَضْعًا مُعْجَرًا؛ فَلَا صَدِيقَ بِلَا هَفْوَةٍ، وَلَا جَوَادَ بِلَا كَبْوَةٍ، وَلَا صَارِمَ بِلَا تَبْوَةٍ.

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضِي سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَقَى الْمَرْءِ ثَبَلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِيهِ

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَايِنًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الَّذِي لَا تُعَايِنُهُ

فَعِشْ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَحَاكَ فَإِنَّهُ مُقَارِفٌ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَاهِبُهُ

قال صديقي أتم الله سعادته: فإني أرى نفسي لا تنسى إساءته، وإن كانت لا تُضْمِرُ أَبَدًا عداوته، فكيف أَرْضِيهَا وَأَصْفِيهَا، وَمَنْ الصَّيْقِ أَخْلَصُهَا وَأَتَقَّيْهَا؟

قلت: سامحك الله، أو ما قرأت قول الله: ﴿قَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، ألم تقرأ قول الحق الواضح الأبين: ﴿ادْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؟

وَكُنْ مَعْدِنًا لِلْخَيْرِ وَأَصْفَحْ عَنِ الْأَدَى فَإِنَّكَ رَأَى مَا عَلِمْتَ وَسَامِعٌ

وَأَخْبِتُ إِذَا أَخْبَيْتُ خَبْرًا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَارِعٌ

وَأُبْغِضُ إِذَا أُبْغِضْتُ غَيْرَ مُتَبَايِنٍ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعٌ

وفي الحديث يا ابن الكرام، عن بدر التمام ومسيك الختام ورين الأنام: «لَا يَجِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ».

اسْتُرْ أَحَاكَ وَعَطَّ عَلَى عُيُوبِهِ وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْجَلْمَ عِنْدَ الْعَيْظِ أَحْسَنُ مِنْ رُكُوبِهِ

وفي معنى هذا جاء الحديث الشريف يا فرة العين: «تُعْرِضُ الْأَعْمَالُ كُلَّ يَوْمٍ خَمِيسٍ وَاثْنَيْنِ، فَيُعْفَرُ لِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا إِلَّا رَجُلَيْنِ، كَانَتْ بَيْنَ أَحَدِيهِمَا وَبَيْنَ الْآخَرِ شَحْنَاءٌ، فَيُقَالُ: أَحْرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَضْطَلِحَا وَتَذْهَبَ الْبَغْضَاءُ».

لِكُلِّ شَيْءٍ فَقْدَتُهُ عَوَضٌ وَمَا لِقَدِّ الصَّدِيقِ مِنْ عَوَضٍ

واسمع أيها الحبيب الألمعي، ما قاله إمامنا الشافعي:

أَجِبْ مِنَ الْإِخْوَانِ كُلِّ مَوَائِي وَكُلِّ عَضِيضِ الطَّرْفِ عَنْ عَنَرَاتِي

يُؤَافِقُنِي فِي كُلِّ أَمْرٍ أُرِيدُهُ وَيَحْقِطُنِي حَيًّا وَتَعَدَّ وَقَاتِي

فَمَنْ لِي بِهِذَا لَيْتَ أَتَى أَصْبَتَهُ فَقَاسَمْتَهُ مَا لِي مِنَ الْحَسَنَاتِ

تَصَفَّحَتْ إِخْوَانِي وَكَانَ أَقْلُهُمْ عَلَى كَثْرَةِ الْإِخْوَانِ أَهْلُ ثِقَاتِي

وفي ختام الكلام يا أصيل يا ابن الأصيل، اسمع إلى ما يقول المولى الجليل: «قَاصِّعُ الصَّفْحِ الْجَمِيلِ». قال الإمام علي رضي الله عنه يا أولي الألباب: الصَّفْحُ الْجَمِيلُ هُوَ الرِّضَا بِغَيْرِ عِتَابٍ.

هَبْنِي أَسَأْتُ كَمَا تَقُولُ قَائِنَ عَاطِقَةَ الْأُخُوَّةِ

أَوْ إِنْ أَسَأْتُ كَمَا أَسَأْتُ قَائِنَ فَضْلِكَ وَالْمُرُوَّةِ

قال صديقي الطيب الأمين: شَفَقْتَنِي شَقَاكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَزَاكَ عَنِّي خَيْرًا يَا رَيْنَ النَّاصِحِينَ، وَأَمَّا أَحِي عَدْنَانُ، فَقَدْ عَقُوْتُ عَنْهُ مَا كَانَ، وَأَنَا عَائِدٌ بِإِذْنِ رَبِّي إِلَى مَجَالِسِ الْإِخْوَانِ، وَعَائِدٌ بِاللَّهِ رَبِّي مِنْ تَرْغِ الشَّيْطَانِ، وَسَائِلُ إِلَهِي أَنْ يَجْمَعَنِي مَعَ إِخْوَانِي فِي الدُّنْيَا عَلَى الْإِيمَانِ، وَفِي الْآخِرَةِ إِخْوَانًا عَلَى سُرْرِ الْجَنَانِ.

وفي الختام أركى سلامنا والصلوات، على البدر المُنِيرِ فِي الظُّلُمَاتِ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْكَائِنَاتِ، وَعَلَى الْآلِ وَالصَّحْبِ وَالرَّوْجَاتِ، وَالْحَمْدُ لِرَبِّي قَاضِي الْحَاجَاتِ، وَمُذْهِبِ الْأَضْغَانِ وَالْعَدَاوَاتِ.